التأويل عند المفسرين القدامى

عمار قرفي
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار – عنابة

ملخص

إن حركة التأويل مظهر من مظاهر النشاط الذهني والعقلي الذي عرف في الثقافة العربية الإسلامية في عصر الترجمة والنقل وازدهار الفلسفة . وازداد التأويل نشاطا وقت ازدهار العلوم اللغوية، إذ تعد اللغة المرجع الأساس لكل عملية تأويلية . وكانت المعتزلة أكثر الفرق الإسلامية اشتغالا بعلوم اللغة والمنطق والفلسفة، فقد ازدهر التأويل لديهم، وفي أحضانهم نما وترعرع . ولقد برع علماء المعتزلة في هذا المجال كما برعوا في علوم اللغة الأخرى. يعدّ التأويل مظهرا من مظاهر الصراع الإيديولوجي على مر العصور الإسلامية، ولذلك ركزت على إبراز أهمية التأويل وإعادة إحيائه في الثقافة الإسلامية العربية في العصر الحديث، حيث إن الفكر الإسلامي يتعرض لحملة شرسة من الفكر المعادي بصفة عامة .

الكلمات المفاتيح : القرآن الكريم، التأويل، الفلسفة، الفرق الإسلامية، المعتزلة .

Résumé

L'interprétation est devenue plus active du temps de la prospérité des sciences du langage, car la langue est la référence de base pour tout le processus de l'interprétation. Les Mo'tazilats (isolationnistes) étaient l'équipe islamique qui, par exellence, s'intéressait le plus aux sciences du langage, à la logique et à la philosophie. Cependant l'interprétation n'est pas un acte objectif, elle devient une arme idéologique au cours des époques islamiques; c'est pourquoi nous avons mis l'accent, dans cet article, sur l'importance de l'interprétation et la revitalisation de la culture arabo-islamique à l'époque moderne, où la pensée islamique est exposée à une interprétation décadente.

Mots clés : Coran, interprétation, philosophie, groupes islamiques, mo'tazilats (isolationnistes).

Abstract

The movement of the interpretation is the manifestation of the known Islamic culture in the era of translation and prosperity of philosophy. The interpretation has become more active time of prosperity of linguistics, because language is the basic reference for the process of interpretation. While Mo'tazilats (isolationists) was the Islamic team who cared the most for language sciences, logic and philosophy. The interpretation has thrived on their hands and grew. The mo'tazilis scientists have excelled in this field, as they also excelled in the language sciences. The interpretation is a manifestation of the ideological struggle in the Islamic times, this is why we have emphasized in this article on the importance of interpretation and revitalization of the Arab-Islamic culture in modern times, where Islamic thought is exposed to an aggressive campaign of anti -Islamic thoughts in general.

Keywords : Quran, interpretation, philosophy, Islamic groups, mo'tazilats (isolationists).

مقدمة :

لا تطمح هذه الدراسة إلى رصد حركة التطور التاريخي لعمليتي التفسير والتأويل ولا تهدف أيضا إلى ملاحقة عوامل نشأتهما وتراكمهما على مر العصور الإسلامية على موضوع التأويل باعتباره ثمرة وعي الإنسان المسلم على مر التاريخ الذي ظهرت فيه تلك السلسلة الضخمة من الاجتهادات التي تحاول فهم كلام الله تعالى وتقله من إطار الوحي الإلهي المقدس إلى المفهوم الإنساني في إطار أفكار ومعان تتصل بحيلة الإنسان وواقعه .

إن وجهتي في هذه الدراسة هي البحث عن طبيعة التأويل وموضعه ومنهجه، وكيف قدم حقيقة معاني القرآن الكريم ومقاصده في إطار مشروع يريد هذا النص المنزل من الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان موضوع التأويل هو ألفاظ القرآن الكريم، من حيث البحث عن معانيه ، وما يستنبط منه [1]، فإنه يلزمني بالتركيز على الجانب اللغوي، والتقيد بأنظار المفسرين والمؤولين في ألفاظ القرآن الكريم وأساليبه وبيانه وبلاغته في الكناية والاستعارة وما إلى ذلك من قضايا اللغة وظفوها في أثناء تحليلاتهم واستنباطاتهم من أجل بناء فهم وتقديم ثقافة واعية تمكن المسلم القارئ للقرآن الكريم من إدراك ما يحمله الخطاب الإلهي من دلالات عميقة ورسالة موجهة، هدفها إخضاع الإنسان إلى سلطة الله سبحانه وتعالى في كل أحواله .

إن التأويل والتفسير يعدان وجهان لمشروع معدّ للفهم، يتطابقان من قاعدة أساسية قوامها اتسام القرآن الكريم بقابلية التفهم في كل العصور، وبقابلية الخضوع لمقروئية جديدة تضيفها المعرفة المتسعة في كل طور من أطوار تقدمها .

ولو أن للقرآن الكريم مجالا واحدا للفهم، ونمطا واحدا في طرائق الاستنباط، ومقروئية واحدة تتقيد فيها معاني الألفاظ، وتنحصر في حدودها الأفكار والمفاهيم، وتعقل في عقالها العبارات والجمل، لكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أول من يتصدى لمشروع فهم كتاب الله تعالى، ولكان هو أول من يقوم بمباشرة هذه العملية، فيفسر بنفسه كتاب الله ويحلّ الإشكالات القائمة بين المسلمين في قضايا القرآن الكريم التي لا تزال عالقة إلى يوم الناس هذا، ولكان بذلك عافاهم من شر الاختلاف الذي دبّ في أوصالهم، بسبب اختلافهم في فهم بعض معاني القرآن الكريم .

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمد متولي الشعراوي : « ولو أن القرآن من الممكن أن يفسر لكان الرسول (ص) أولى بتفسيره، لأنه عليه نزل، وبه انفعل، وله بلغ وبع علم وعمل، وله ظهرت معجزاته، ولكن الرسول (ص) اكتفى بأن يبين للناس على قدر حاجاتهم من العبادة، التي تبين لهم أحكام التكليف في القرآن الكريم (...) أما الأسرار المكتنزة في القرآن حول الوجود، فقد اكتفى رسول الله (ص) بما علم منها، لأنها بمقياس العقل في ذلك الوقت ولم تكن العقول تستطيع أن تتقبلها وكان طرح هذه الموضوعات سيثير جدلا يفسد قضية الدين، ويصرف الناس إلى جدل حول قضايا لن يصلوا فيها إلى شيء » [2] .

وإلى مثل هذا أشار مصطفى صادق الرافعي بقوله : « وقد ثبت أن رسول الله (ص) قبض ولم يفسر القرآن إلا قليلا جدا ، (...) إذ لو أراد (ص) فسره للعرب بما يحتمله زمنهم وتطيقه أفهامهم، لجمد القرآن جمودا تهدمه عليه الأزمنة والعصور بآلاتها ووسائلها، فإن كلام رسول الله (ص) نص قاطع، ولكنه ترك تاريخ الإنسانية يفسر كتاب الإنسانية»[3].

وقد ذكر ابن عاشور أيضا أن ما نقل عن النبي (ص) من بيان المراد من بعض آي القرآن في مواضع الإشكال والإجمال، وذلك شيء قليل .

قال ابن عطية عن عائشة، وما كان رسول الله يفسر من القرآن إلا آيات معدودة، علمه إياهن جبريل [4] .

ومن هذا المنطلق، وهو أن النبي (ص) لم يفسر القرآن الكريم، بل تركه للزمن يفسره كلٌّ بعلومه وأفكاره وثقافته، يمكنني أن أجد مجموعة من الأفكار تتعلق بالطرائق الملائمة التي ينبغي سلوكها في إنجاز هذا المشروع الضخم، مشروع الفهم . ومن تلك الأفكار التي أراها مهمة في هذه الدراسة :

1 – تقويم التفسيرات القديمة .

2 – اقتراح مناهج جديدة للتفسير .

3 – إثارة العمل التأويلي وإحياؤه .

4 – هل التفسير منهج ثبوتي ى يخرج عن اتباعية السلف ؟

5 – هل التأويل تعتيم للحقيقة البينة في القرآن ؟

6 – التأويل بين سلطة العقل وسيادة التراث .

7 – التجربة التأويلية وحركة التفسير بين الماضي والحاضر .

8 – التأويل والبحث عن أبعاد النص .

9 – المناهج اللغوية وحصار معاني النص القرآني.

10 – المناهج اللغوية وتجربة المنتج والمتلقي .

هذه بعض الأفكار المهمة التي تدور في فلكها الدراسة، والتي ستعتمد بشكل مركز على التطبيقات الموضوعية في كتب التفسير، وما يمكن ملاحظته هنا أن هناك منطلقات أساسية وجهتنا نجملها فيما يلي :

أولا – إعادة مناقشة أولى المسلمات في هذا المشروع :

إنه مشروع فهم كلام الله تعالى، إنه التفرقة بين مفهومي التفسير والتأويل، إعادة النظر في تفضيل التفسير على التأويل كما هو شائع في فكرنا الإسلامي ماضيا وحاضرا . فكثيرا ما نظرت الأجيال إلى التفسير بعين الرضا، وإلى التأويل بعين الريبة، واتهمته بالالتواء وعدم البراءة في الموضوعية .

إن دراستي ستنطلق من تغيير هذه المعادلة، فتعطي الأهمية والمصداقية للتأويل، لأن التفسير لا يتجاوز إطار واقعه التاريخي وهموم عصره، ويتبنى موقف معاصري النص في إطار معطيات اللغة التاريخية عصر نزول القرآن الكريم . « وكما هو معلوم – القرآن – صالح لكل مكان وزمان، لأنه يحتوي على حقائق الوجود والحياة، ويعد جماعا للمعرفة الكلية، هذا ما يتناقض تماما مع القول بضرورة اعتماد المفسر على المأثورات المروية عن الجيل الأول أو الجيل الثاني على الأكثر، والوقوف عند تفسيرهم وفهمهم للنص » [5] .

ولقد أثار التأويل إشكالات وجودية ومعرفية كثيرة عندما حاول ربط النص القرآني بمنتجات المعرفة والثقافة والعلوم، وإدخال هذه العناصر بوصفها وسائل قوية وفعالة في الوصول إلى حقائق النص الذي تأسس على بناء علمي ومعرفي وبرهان عقلي، منذ الآية الأولى التي نزلت منه [6] .

وإنني أتفق تماما مع الباحث نصر حامد أبو زيد حينما رأى أن هذه الإشكالات يمكن أن تفتح لنا آفاقا ثرية ومتنوعة، كما يمكن أن تضيء لنا كثيرا من الجوانب التي ما زالت مجهولة في التراث الإسلامي[7]. إن الإشكالية الرئيسية في الفكر الإسلامي كانت وما تزال إشكالية التأويل بلا

منازع[8]، كيف لا والعقل العربي الإسلامي عقل تأويلي بامتياز [8] .

وفي الحقيقة إن ظاهرة التأويل من الظواهر التي لها أهمية في التاريخ الإسلامي كله، سواء في فهم القرآن الكريم، أو في الفقه، أو في علم الكلام، أو في الفلسفة، أو في علوم اللغة . ذلك أن هذه العلوم كلها ترتبط في موضوعها بالدلالة الأسلوبية ومعاني ألفاظ النص القرآني، ولقد انتهجت هذه العلوم جميعا طريقة واحدة لتقرير نتائجها، وهب محاولة الوصول إلى الغاية القصوى من النص المقروء والمؤول . ومن أجل هذا ، فإني رفعت – كغيري – من مقام التأويل، معتبرا إياه المشروع الأنسب للفكر الإسلامي في العصر الحديث من أجل فهم كتاب الله تعالى .

ثانيا – إقناعية التأويل :

إن الحركة التأويلية في الإسلام بدأت مع بروز نشاط المذاهب الكلامية والعقدية، وكانت الغية من التأويل عند أصحاب هذه المذاهب منح المصداقية للأفكار التي انتصبوا للدفاع عنها، لأنهم لما اختاروا طريق الدليل العقلي، وهو وسيلة إقناعية، احتاجوا إلى تأويل الألفاظ بما يسمح به مجال استخدامها، حتى تتوافق مع الأدلة العقلية التي افترضوها حقيقة صادقة يجب أن تساق إليها القرائن المشابهة في القرآن الكريم، ولو بطريق التأويل . ومن ثمة صار التأويل ضرورة حتمية من حتميات الدفاع عن الدين والعقيدة والمذهب، لتحقيق المصداقية واليقين للأفكار المعتمدة لدى هذا المذهب أو ذاك .

وقد انعطف التأويل هنا منعطفا هائلا نقل التفكير الإسلامي من إطاره البدوي، الذي يقوم على السماع والرواية والتلقين، وهي سليقة عربية فطرية، إلى الإطار التجريدي العقلاني، بعد دخول الإسلام إلى بلاد العراق وفارس، حيث الحضارات العريقة المشبعة بالفكر والفلسفة والعلوم، التي أصبح لها آثار ملموسة في التفكير الإسلامي والمنهج الإسلامي في كل العلوم والفنون .

وقد كان للترجمة في تلك الفترة آثار واضحة في علوم الفقه والتفسير والكلام، فظهر ذلك جليا في مدرسة الفقه الحنفي، وعلم الكلام المعتزلي، وعلم التفسير بالرأي ، وعلمي النحو والبلاغة.

ثالثا – فهم الخطاب وتجربة المتلقي :

إن وجود نص ذي كيان ديني أو أدبي أو فلسفي هو في الحقيقة خلاصة تجربة منتج هذا النص أو الخطاب، أما التأويل فهو التجربة القائمة بذات قارئ ذاك الخطاب، أو بمعنى آخر تجربة المتلقي . وليس شرطا أن تتفق تجربة المؤول في أثناء تحليله أي خطاب مع تجربة المنتج أو المتكلم، وهذا ما بجعل التأويل إعادة إنتاج تجربة المتكلم إنتاجا آخر جديدا نابعا من خلاصة فهم المتلقي الذي هو المؤول .

فالذي يحدد الفهم الحقيقي لمقاصد النص هو المتكلم نفسه، وفي حالة غيابه يحاول المتلقي أن يصل إلى تلك المقاصد وفق دلالات لغوية وضوابط سياقية تهديه إلى نوايا المتكلم من إرسال الخطاب .

وإذا كان النص القرآني صادرا من الله تعالى، والله هو الذي أنزله ، والقرآن هو رسالته التي خاطب بها مجموعات عديدة ومستويات متفاوتة وأجيالا متباعدة في الزمن وفي مستوى الإدراك والفهم، والقدرة على اكتشاف الحقائق، فلا شك أن هذه الرسالة تنطوي على مستويات عدة من الفهم، ودرجات متفاوتة من الإدراك، لأن الله تعالى يعلم جميع مستويات البشر، ودرجات تفاوتهم على مر الأجيال في مستقبل الزمان، ولذلك راعى مستويات المتلقين، فأنزله بمستويات من الفهم بتفاعل معها كل أبناء العصور والحضارات اللاحقة .

ولذلك كان القرآن الكريم كالبحر الذي لا ينضب، والنهر الدائم الحركة على حد تعبير المستشرق

فريتجوف شيون Vertigoff Chillon [10] . وإن الله تعالى يتكلم بإيجاز [11]، وفي هذا الإيجاز احتواء لكل حقائق الوجود والإنسان، التي هي موضوع التأويل ومحل نظر المؤولين . وعلى هذا الأساس، فإن النص القرآني هو مصدر إنتاج مفاهيم متفاوتة الأبعاد، تجعل أصحاب الاختصاصات المتنوعة يتفاعلون معها، فقوله تعالى مثلا : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُزَكِّيهِمْ وَتُطَهِّرُهُمْ بِهَا ﴾ [12]، يمكن تحليلها بأبعاد مختلفة :

1 – البعد النفسي (الجانب التربوي والخلقي من الزكاة) .

2 – البعد الاجتماعي (مظهر التكافل والتعاون الاجتماعي).

3 – البعد الاقتصادي (القضاء على الفقر).

4 – البعد السياسي (إقامة العدل والأمن في البلاد).

5 – البعد الأدبي والفني، حيث إن هذه الآية من جوامع الكلم، جمعت في ألفاظ قليلة أبعادا كثيرة، ومعادن كثيرة.

فهذه الآية إذن منطلق دراسات عديدة يقوم بها مختصون، كباحث الاقتصاد، والسياسة، وعلماء النفس، وكذلك التربويون، ذلك أن الله تعالى منزل هذا الخطاب عليم بالنفس البشرية، ويعلم كل المستويات التي ستؤول إلى حضاراتهم . ولذلك أنزل القرآن الكريم بهذا التركيب، وهو تضخم المعنى وتكاثفه في قليل اللفظ . وفي هذا إعطاء فرصة للعقل البشري يخوض غمار التأويل، حتى يستخرج من آي القرآن ما يكتنزه من الدلائل النفسية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية في آن واحد . وهذا الاكتناز في حد ذاته هو من أكبر دواعي التأويل ن الذي يجعل النص القرآني رهين تجربة الإنسان ، في جميع أطوار حضاراته .

رابعا – فهم القرآن مشروع لم يكتمل :

إن الغاية القصوى من إحياء الحركة التأويلية هي إقرار مبدأ ثابت وراسخ يتلخص في أن فهم النص القرآني مشروع لم يكتمل، ذلك أنه لم يأت بأفكار تفصيلية تعالج كل الجزئيات المتصلة بالحياة والنظام، وإنما جاء برؤية شاملة، ووعي مطلق، يحتاجان إلى الصرامة التكتيكية لتفتيتها في أشكال مجزأة من السلوك وأنماط من الفكر . وذلك أمر تركه الله للإنسان نفسه يستنبطه بطريق النظر والاجتهاد وإعمال العقل، وقد وصف الله عز وجل هذه العملية بالتدبر والتأمل، وهما واجبان على المسلم الذي يتعاطى فهم القرآن الكريم وتلاوته والتعبد به، فقال جل ثناؤه : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [13] ، وقال عز وجل : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [14] .

فالقرآن الكريم ميسر للفهم، سهل على المتدبرين والمتأملين، فهو إجالة الفكر في معانيه التي أقامتها الألفاظ، ونسجت خيوطها العبارات، ومن هنا صارت لغته وجمله وتراكيبه مستودعا للمعاني التي ترك الله للعقل البحث عنها والتأليف بينها، ثم إنتاجها في أنساق متكاملة ومنسجمة .

فالتدبر في القرآن الكريم هو إعادة قراءة النص الإلهي المقدس في إطار منظومة إنسانية مصوغة في مدونة لغوية فائقة البراعة في ترتيب المعاني، وتقصي أجود الألفاظ لها، واختيار الأنسب منها في مقابلة كل معنى وضعت له، وهو ما جعل عملية القراءة في حد ذاتها صعبة ومعقدة، لأن القارئ القاصد للفهم يلزمه أن يقسم زمن القراءة إلى مراحل تشتمل أجزاء منها على تقصي المعنى، وأجزاء أخرى على البحث عن وجوه الملاءمة بين الألفاظ ومعانيها في النص، والأجزاء الأخيرة من القوت تخصص لاختيار المعنى المقصود بذاته في هذا

النص، وأن اللفظ لا ينصرف إلى ما سواه مما يشاركه في المعنى أو يقاربه، ثم تثبيت هذا المعنى في اللفظ الذي يحمله بأنه هو المقصود بعينه وذاته.

كما يحتاج هذا العمل جهدا وبذل طاقة ذهنية لا تكل ولا تفتر، وقد عدّ الله هذا العمل ابتلاء للمؤمنين فيه أجر عظيم . ولولا أن القرآن جاء بناؤه بهذه الصفة لتقوّل فيه العالم والجاهل على السواء، ولاكتفى المتأخرون بما أنتجه المتقدمون، ولكان أمر القرآن قد حسم فهمه منذ زمن الأولين ولفات المتأخرين حق الاجتهاد فيه .

ولذلك، فإن فهم القرآن مشروع لم يكتمل ولا يمكنه أن يكتمل طالما أن الاجتهاد فيه واجب على المسلمين في كل الأوقات، وليس في وقت دون وقت، وإن حقائقه المطلقة لا تنغلق، بل إن هذا الإطلاق من الله تعالى ليبقى المسلمون على مر الزمن مهيئين للإبداع والإنتاج، وإعادة قراءة النص القرآني، والمراجعة الدائمة لعمليات الفهم السابقة، ثم تجديد الفهم بناء على تجدد المعلومات ومعطيات العلوم والحضارات . « إن الحقيقة التي يكشف عنها الفهم هي مشاركة وليست امتلاك، إنتاج الدلالة وبلورة المعنى وليست إرادة السيطرة والهيمنة، إنارة السبيل وليست تعتيم منافذ الفهم » [15] .

خامسا – قانون الإحالة في الفهم :

إن محاولات فرض الفهم المتكررة في تاريخنا تحت اسم من الأسماء التي تريد تعزيز سيطرتها وهيمنتها مثل الفرقة الناجية، أهل السلف، أهل السنة والجماعة، أصحاب الحق، وغيرها من الأسماء التي كانت تصف نفسها بالأفضلية والاستقامة والنجاة، وما هي إلا تعتيم للحقائق وغلق للأبواب ووضع السدود أمام كل منفذ من منافذ الفهم والوعي والإدراك وفرض حصار على معاني القرآن الكريم . ولو أن جميع الطوائف والمذاهب الإسلامية سلمت بمبدأ القانون الذي يحكم كل خطاب، وهو قانون "الإحالة"، أي أن « كل كلمة تحيل إلى كلمة أخرى دون الوصول إلى معنى يشفي الغليل، أو القبض على حقيقة تتخذ كبرهان للسيطرة والتشويه والتشويش» [16]، فلا شك أن الحوار الهادئ المشترك سيسود بين تلك المذاهب وتلك الطوائف، وستنطفئ فتائل الصراع العنيد الذي حصل طيلة القرون الماضية .

لا بد من التسليم بأن « هناك مشاركة دائما في إنتاج الحقيقة وبناء المعنى، مشاركة ليست حكرا على أحد، تؤول إلى معرفة مقتسمة، والمعنى كحصص موزعة، وفهم مشترك تتداخل آفاقه وتختلف مستوياته وأبعاده . إننا نفهم بنمط مختلف، ونعيد وضع الحقيقة المكتشفة على محك النقد والتمحيص، لأن اللغة بما هي حوار وتفاهم لا تقف عند حد ولا تسكن إلى حقيقة ودلالة معينة، بل هي ارتحال لا يستقرّ، وصيرورة دائمة تؤطرها جدلية السؤال والجواب » [17] .

إن من يتدبر في معاني القرآن الكريم ودلالاته يدرك شساعة الفضاء الممتد في آفاق التجربة الإنسانية، وليس عبثا أن يكثر القرآن الكريم من الحديث عن الأمم السابقة، ويكرر التذكير بالعبر والعظات المستلهمة من تاريخها، إنها التجربة الإنسانية التي يجب أن تستفيد منها الأجيال في مستقبل البشرية، وقد حولها القرآن الكريم إلى أفكار ومكونات من القيم والمبادئ ذات الطابع الشمولي الذي يستهوي العقل البشري إلى فهمه وإعادة إحيائه وبرمجته بالصيغ التي تشكلها الثقافة والمعرفة على مر العصور .

ومن هنا أستطيع القول إن العمل التأويلي هو الدخول إلى فضاء تلك التجربة الإنسانية التاريخية وإعادة إنتاجها بكيفية جديدة، لأن العقل البشري في

مراحل تطوره لا يحبذ أن ينتج نسخا مكررة من التاريخ، بل يريد أن يتحاور مع التاريخ ويتجاوب معه في إطار جدلية تجعل الحقيقة ناصعة ومتجددة، وتتخذ من لغة النص القرآني مطية إلى تلك الحقيقة التي لا تعرف الاستقرار في موطن، ولا ترسو في ميناء طالما أن اللغة سفن وزوارق هائمة تحركها فيضانات العلوم وطوفان المعرفة .

سادسا – التأويل بين التمويه وحقيقة الفهم :

هل التأويل هو تمويه للحقيقة باستخدام لعبة اللغة ؟ أم هو محاولة لفهم الأشياء من داخل اللغة ؟

إن تمويه الحقيقة لا يحدث إلا إذا وقع النشاط التأويلي تحت ضغط هيمنة أو سلطة طائفة أو خلفية مشروع ديني أو سياسي معين يهدف إلى غايات محددة، حينئذ يصبح التأويل دفاعا عن نمط من الفكر، أو نموذج تمثيلي يراد له السيطرة والتحكم، وكثيرا ما عالجت الحركة التأويلية قضايا من هذا النوع في تاريخ حضارتنا الإسلامية .

فهناك مصطلحات إسلامية كثيرة تحولت إلى كتل من المفاهيم الدينية التي تتغذى منها أنظمة سياسية لتثبيت سلطتها بتأصيل ديني في مجتمع ترتبط به تصرفات البشر، وتعود إليه شؤونه فيما يختارون وما لا يختارون، صارت حرزا حصينا يتحصن فيه الأمويون ليردوا بها كل الهجمات والثورات التي تحتج عليهم في قتل من يعارضهم ويخالفهم والتنكيل بهم [18] .

فعبارة قضاء وقدر لا تعني في ذهن الأمويين سوى أن وجودهم على رأس السلطة قد تقرر في السماء، وفرض في الأرض بإرادة إلهية لا يقوى البشر على ردها ودفعها، وحتى الأمويون أنفسهم لا يستطيعون أن يتخلصوا من هذه الإرادة الإلهية التي أجبرتهم على الوجود في هذا المنصب من غير اختيار منهم، وإذا أرادوا التنصل من هذه المسؤولية، فلا يمكنهم أن يحققوا ذلك إلا إذا أراد الله لهم أن يتنحوا. وخير ما نمثل به لهذا الفكر التأويلي قول الشاعر جرير مادحا الوليد بن عبد الملك، وهو أحد خلفاء بني أمية (كامل) :

ذو العرش قدر أن تكون خليفة ملكت فاغْلُ على المنابر واسلم ! [19]

وقوله (بسيط) :

أنت الخليفة للرحمن يعرفه أهل الزبور وفي التوراة مكتوب [20]

وقوله يمدح عمر بن عبد العزيز (كامل) :

إن الذي بعث النبي محمدا جعل الخلافة في الإمام العادل [21]

وفي مثل هذا الحال، كان للتأويل دور تمويهي في إقناع الشعوب باستخدام اللعبة اللغوية، واستغلال غموض المعنى والارتباك الحاصل بين المعنى واللفظ في الكلمات التي ليس لها محل واحد في الاستعمال . ومن هنا، فإن التجربة قد يعيشها المتلقون والمستقبلون للرسالة أو الخطاب المنتج بحالات وكيفيات مختلفة ومتنوعة، بحسب ما يلوح من آفاق المعنى التي رسمتها الألفاظ .

إن المشكلة التي تواجهنا أمام النصوص السماوية التي تحمل وسائل خطابية للبشر، أنها تنمي بقوة شاعريتها وبالتدفق الهائل من الإحساس الرقيق الذي يحق وصفه ويصعب الوصول إلى عمقه، لأنه يحدد علاقات دقيقة جدا، وعظيمة

جليلة، تقرب المسافة بين الله وبين عباده المؤمنين، فكلمات مثل الخضوع، والخشوع ، والتبتل، والتقوى والخوف، والرجاء، والمحبة والرهبة، والطاعة والعبادة، تمثل فضاءات نفسية كبيرة، وهي تحتل مساحات شاسعة ومجالات مفتوحة داخل الفضاء النفسي بحيث تسعى تلك الألفاظ للضغط على مشاعر المؤمنين وقلوبهم، وتستنفذ كل أجهزة التصوير والكاميرات ومراصد الرؤية التي تحاول التقاط كل خفقة وكل نبرة تمر بخاطر الإنسان المؤمن وتسجلها ثم تنقلها للتأمل .

ولذلك كان القرآن كتابا للتأمل والتدبر والتعقل، وطلب من جميع المؤمنين ألا يكتفوا بإلقاء نظرات عابرة بعيدة عن التأثر، بل أوجب عليهم أن يغوصوا إلى أبعد نقطة في أعماق بحره . وهنا يجد التأويل نفسه منفذا ومسلكا يسلكه المؤمن، يتخذ فيه لكل لفظ من تلك الألفاظ شكلا مناسبا مع الصورة التي الترويج لها وتسويقها في أذهان الجماهير والعامة من الناس .

سابعا – التأويل والعمل النقدي :

هناك أكثر من سبب يجعل من التأويل إيديولوجية إسلامية بأكملها، وليس مجرد منهج في التعامل مع النص القرآني، ومن أهم تلك الأسباب مواجهة الإيديولوجيات المعادية، التي تتصف بالكثافة والتضخم والتراكم . وكانت المواجهة الأولى للفكر الإسلامي الذي يرجع في أصوله إلى القرآن الكريم والحديث الشريف مع الفكر الفلسفي اليوناني والفكر الزرادشتي والمجوسي الفارسي، إبان عصر الترجمة والاحتكاك بالشعوب التي خضعت للحكم الإسلامي .

وقد أفرزت هذه المواجهة حركة تأويلية تصاعدت مع الزمن من موقف التحدي والمواجهة، ثم تحول عند المعتزلة إلى موقف إعادة بناء الفكر وترتيب قواعده وأصوله، كما ظهر عند المعتزلة المتأخرين، الذين عكفوا على تأسيس مدرسة المعتزلة من الناحية النظرية وشرح أصولها، ثم إلى موقف التأويل المنتج للأفكار والموجه للتفسيرات، وهو التأويل التقويمي الذي ظهر عند الأشاعرة، وخير من مثله الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، ثم أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن .

ولا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن القرآن الكريم وحي يحتوي على رصد كبير من المضامين الفكرية والروحية والإنسانية والاجتماعية تعكس تجارب سبقت الوحي القرآني أو واكبت نزوله . فكثير من قصص القرآن الكريم تصور لنا مواقف حوارية وجدانية تعبر عن إيديولوجية حقيقية، وتنطوي على اتجاهات مناقضة لرسالات الأنبياء والمرسلين، الذين واجهوها وتصدوا لها بصبر وثبات، لأنها تمثل انحرافا صارخا عن منهج الله الذي بشروا به .

ومن هذا المنطلق، فإن منهج الله تعالى تحول إلى تجربة إنسانية يسطرها الوحي بنصوصه المنزلة وفي خضم هذا الصدام بين التجربة الإنسانية المستندة إلى السماء والتجربة الإنسانية المستمدة من الأهواء والمصالح وتمجيد الذوات وتأليه الأفكار والبشر والأوثان، حدث احتكاك شديد بين التجربتين ونتج عن ذلك استرسال للخواطر وتوارد كثيف للأفكار بسبب ردود الأفكار والتشنجات الناتجة عن المواجهة والتصادم .

لقد تحولت التجارب من وقائع تاريخية واحتدامات إلى أفكار وقيم ينميها ويغذيها الصراع المتواصل، حتى صار من الصعب فهم تجربة منها بعيدة عن الأخرى .

ولا يمكن فهم خلفيات تجربة واحدة بمعزل عن الأخرى، ولذلك فإنني ألح على عدم عزل التجربة الرسالية التي يمثلها الوحي عن الأفكار

والإيديولوجيات التي أنتجها البشر، لأن كثيرا من المفاهيم والقيم والأفكار التي تتضمنها الرسالات السماوية، إنما صنعها المعارضون لها . ولذلك، فإن فهم مضامين الوحي القرآني بعيدا عما هو موجود في الواقع من النظم والنظريات والفلسفات سيكون فهما غامضا ومنعزلا عن الواقع الإنساني .

لأن البحث في مفاهيم أي مشروع ديني وعقدي موجهة لوجود معارض أو مضاد أو مخالف، وتلك هي غاية العملية التأويلية، إذ تتفحص بالنقد والتحليل الأفكار والمفاهيم المضادة، ثم تعقد بينها وبين ما تؤمن به وتدافع عنه من أفكارها وتحمي قيمها في وجه المعارضين والمخالفين والمعادين .

ولذلك تبذل التأويلية كل ما تملكه من طاقات وقدرات نقدية لتحقيق الغلبة الفكرية، ثم الانتصار في أرض الواقع من طريق الانتشار الواسع والتقدم أكثر نحو كسب المزيد من الشعبية والجماهيرية، ولهذا السبب كان الاهتمام بالشروح اللغوية والعقلية للنصوص الدينية، بغية كل الفرق الدينية التي ظهرت في تاريخنا وإلى يوم الناس هذا .

خاتمــة

يمكنني أن أستخلص بأن التأويلية وجه من أوجه الصراع الإيديولوجي بين الأديان والتراث الشعبي، كما هو الحال بين الدين الإسلامي والفكر العربي في العصر الراهن .

كما تمثل التأويلية وجها آخر للنقد الداخلي في الثقافة الإسلامية نفسها، أو للمضمون الفكري والروحي للدين والواحد، كما الحال في الثقافة والفكر في الدين الإسلامي، إذ تتسع التأويلية إلى المجال النقدي، فتتحول برمتها إلى عملية نقدية بين الفرق الإسلامية التي تكونت في شكل مذاهب تجميعية يتهيكل فيها فئات المجتمع المسلم بنخبه ومفكريه ومثقفيه وجماهيره الواسعة والعريضة .

وبما أنها تعتمد على مرجعية واحدة، هي مرجعية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن نصوصهما تعدّان القاعدة الخلفية لكل فرقة من تلك الفرق، وهذا يعني أن العمل التأويلي هو شأن الجميع، وأن العملية التأويلية لا تعزى إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف باعتبارهما فكرا وحكما دينيا، بل تعزى إليهما بوصفهما نصوصا لغوية تعكس تجارب بشرية مؤسسة في الفكر البشري، والمؤولون إنما يحاولون نقلها من الدماغ إلى الواقع الإنساني . وفي هذا العقل تظهر مجهودات المؤولين متسارعة في إحداث الملاءمة والمواءمة بين الإرادة الإلهية والواقع الإنساني، وهنا تتكسر صرامة النصوص وقطعيّتها أمام ظنّية الإنسان ونسبيّة توقعاته في نقل الإرادة الإلهية إلى أرض الواقع بعد تكييفها وإعادة صياغتها، ومن هنا كانت التأويلية عملا ضروريا لإسقاطات النصوص الإلهية على أرض الواقع، لأن هذا الإسقاط سيمرّ بعملية عرض نظري على العقل قبل تطبيقه على واقع الإنسان.

الهوامش

1 – الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع تونس، دار مصر للطباعة، 1997، مج 1، ج 1، ص 12 .

2 – الشيخ محمد متولي الشعراوي، تفسير الإمام الشعراوي، المكتبة العصرية صيدا – بيروت، 2002 .

3 – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي بيروت، ط 4، 1974، هامش ص 14 .

4 – تفسير التحرير والتنوير، مج 1، ج 1، ص 13 .

5 – عبد الجليل بن عبد الكريم سالم، التأويل عند الغزالي نظرية وتطبيقا، المطبعة العصرية تونس، ط 1، 2000، ص 6 .

6 – سورة العلق، الآية 1 .

7 – نصر حامد أبو زيد، التأويل عند ابن عربي، بيروت، ط 1، 1983، ص 11 .

8 – التأويل عند الغزالي، ص 6 .

9 – المرجع نفسه، ص 5 .

10 – فريتجون شيون، كيف نفهم الإسلام، ترجمة عفيف دمشقية، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1978، ص 53 .

11 – المرجع نفسه، ص 51 .

12 – سورة التوبة، الآية 104 .

13 – سورة محمد، الآية 25 .

14 – سورة القمر، الآية 17 .

15 – هانس غيورغ قادامير، فلسفة التأويل، ترجمة محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط 4، 2006، ص 32 .

16 – المرجع نفسه، ص 32 .

17 – المرجع نفسه، ص 32 .

18 – انظر علي الشابي، مباحث في علم الكلام والفلسفة، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس، ط 1، ص 29–30 .

19 – جرير، الديوان، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1986، ص 370 .

20 – المرجع نفسه، ص 36 .

21 – المرجع نفسه، ص 313 .